القسم الثاني

دراسة مقارنة

القسم الثـــانى

دراســـة مقارنة

تقدمة :

نقصد بهـذه الدراسة أن نلقى نظرة عامة على التاريخ والمؤرخين وحركة التأليف التاريخى فى مصر فى القرن التاسع عشر ، لنحدد بها أطوار الحركة واتجاهاتها وتياراتها ، ولنتعرف على فنون التاريخ وألوانه التى كتب فيها المورخون المصريون فى هـذا القرن ، وعلى ثقافاتهم المختلفة وأثر هذه الثقافات فى كتاباتهم وفى منهجهم وأسلوبهم ، ولنوضح أخيراً أغراض هذه الحركة ومراميها وأهدافها ، ولنبين إلى أى حد أثرت فى المجتمع المصرى .

١ — بوادر النهضة الثقافية التلقائية

فى أواخر القرن الثامن عشر

والذى نلاحظه أن مصر بدأت فيها فى أواخر القرن الثامن عشر بوادر نهضة علمية ثقافية تلقائية ، أى أنها نبتت نباتاً داخلياً

فى مصر ، ولم تكن متأثرة بأى مؤثر خارجى ، شرقى أو غربى ، بدت هذه النهضة واضحة فى ظهور مجموعة من رجال الفكر المصريين لم تعرف مصر شبيها لهم فى القرون الثلاثة السابقة ، ففى ميدان الدراسات الرياضية والفلكية ظهر الشيخ حسن الجبرتى ، وفى ميدان الشعر والنثر ظهر رجال كالشيخ محمد الشبراوى ، والشيخ حسن العطار — وقد وليا مشيخة الأزهر — والشيخ إسماعيل الخشاب . وفى ميدان الدراسات اللغوية والدينية ظهر السيد محمد المرتضى الزبيدى ، وفى التاريخ ظهر الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ؛ وكان من الممكن أن تسير هذه النهضة فى طريقها ، وتتطور تطوراً طبيعياً ، وأغلب الظن أن هذا التطور كان سيأخذ شكلا بعثياً إحيائياً ، بمعنى أن هذه النهضة كانت ستعمل على بعث أمجاد الماضى العلمية ونشر التراث القديم .

غير أن هذه النهضة التلقائية أصيبت بقطع أو انفصال وقتى عند مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر ، فقد أتى مع الحملة عدد من العلماء الفرنسيين ، وكان هؤلاء العلماء ، بل كانت الحملة كلها تحمل معها إلى مصر مظاهر نهضة علمية مختلفة عن مظاهر النهضة المصرية اختلافاً بيناً فى كل شىء ، وزار نفر من العلماء المصريين المعهد الذى أنشأه العلماء الفرنسيون فى القاهرة ، وزاروا المكتبة والمطبعة ، وبهرهم ما رأوه ، وبدأوا يفكرون ويقارنون

بين ما فى أيديهم من علم وما فى أيدى هؤلاء الفرنسيين من علم .

وجلت الحملة عن مصر ، وحدثت اضطرابات ، واستقر الأمر لمحمد علي والياً على مصر ، وأدرك النظام الجديد أنه لا بد من النقل عن الغرب إذا كانت مصر تريد نهضة حقيقية تساير بها العالم ؛ وفتحت المدارس الجديدة ، وأرسلت البعثات إلى أوربا ، ووقفت حركة التأليف مؤقتاً لتبدأ حركة الترجمة ولتستمر طوال عصر محمد علي .

٢ — تطور الدراسات التاريخية فى مصر

فى القرن التاسع عشر

يعنينا من تتبع هذا التطور أن نتعرف على موقف علم التاريخ وأن نتتبع حركة التأليف فيه ، وعندنا أن النهضة فى كتابة التاريخ التى بدأها الجبرتي كان يمكن أن تستمر وأن يظهر فى المجتمع المصرى مؤرخون آخرون على نمطه ، كان من الممكن أن يُقبل صديقا الجبرتي : إسماعيل الخشاب وحسن العطار على كتابة التاريخ ، فقد بدت ميول الخشاب التاريخية فى المحاولة التى حاولها وفي التاريخ الذى لم يتمه ولم يصلنا ، وبدت ميول العطار التاريخية فى نوع الكتب التى كان يقرؤها ، وكانت فى معظمها كتباً

تاريخية وجغرافية ، كما بدت واضحة كذلك فى توجيهاته لتلاميذه ، وأولهم رفاعة رافع الطهطاوى .

وكان من الممكن أن يظهر فى المجتمع المصرى مؤرخون آخرون من تلاميذ العطار من أمثال : رفاعة الطهطاوى ، ومحمد عياد الطنطاوى ، ومحمد عمر التونسى ، وقد بدت لكل واحد منهم ميول تاريخية واضحة ظهر أثرها فى بعض ما كتبوا ، ظهر أثرها عند رفاعة فى رحلته « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » ، وفى الكتب التاريخية الكثيرة التى ترجمها هو وتلاميذه فى مدرسة الألسن ؛ وظهر أثرها عند محمد عياد الطنطاوى[١] فى نوع الكتب التى اختارها لتدريس الأدب فى الأزهر ، وفى بعض الكتب التاريخية التى ألفها أثناء إقامته فى روسيا ؛ وظهر أثرها عند محمد عمر التونسى[٢] فى رحلتيه اللتين وصف فيهما لأول مرة بعض أقطار السودان ، وهما رحلة دارفور ، ورحلة ودأى .

غير أن مجىء الحملة الفرنسية واتجاه مصر بعد ذلك إلى النقل عن الغرب ، وحركة الترجمة فى عصر محمد على ، كل ذلك أوقف حركة التأليف التاريخى التى بدأها الجبرتى ، ووجه الجهود كلها إلى

---

(١) و (٢) انظر : الشيال : دكتور برون والشيخان محمد عياد الطنطاوى ومحمد عمر التونسى ؛ مجلة كلية الآداب بجامعة اسكندرية ، العدد ٢ ، ١٩٤٤ .

الترجمة ، وكانت معظم الكتب التى ترجمت كتباً علمية وحربية لخدمة المؤسسات الحديثة فى الجيش والمدارس والدواوين إلى أن فتحت مدرسة الألسن ، وبدأ رفاعة يضع مشروعه لترجمة عدد من الكتب لتغطية تاريخ العالم .

وانتهى عصر محمد على ورفاعة وتلاميذه غرق فى حركة الترجمة ، وكان الأمل معقوداً عليهم أن يخطوا بعد قليل الخطوة التالية الطبيعية فيتركوا الترجمة إلى التأليف بعد أن قرأوا وفهموا وهضموا ، ولكن النكسة التى أصابت الحياة الثقافية بتولية عباس الأول أوقفت هذا التطور مؤقتاً ، حتى إذا كان عصر إسماعيل انطلق رفاعة وتلاميذه يؤلفون ، وانضمت إليهم مجموعة جديدة من أعضاء البعثات ، هى مجموعة على مبارك ورفاقه من خريجى الهندسة أو من المعنيين بالآثار .

وكانت ثقافة الفريق الأول ثقافة أزهرية إسلامية ، طعمت فيما بعد بالثقافة الفرنسية التى تلقاها بعضهم فى باريس ، والتى تلقاها البعض الآخر فى مدرسة الألسن ، أما رجال الفريق الثانى فقد كانت ثقافتهم الأولى ثقافة علمية هندسية فلكية أو أثرية ، ثم طعمت هذه الثقافة كذلك بالثقافة الفرنسية ، ولهذا نلاحظ أن أفراد هاتين المدرستين قد تأثروا فى كتاباتهم التاريخية بهذين النوعين من الثقافة ، فهم يستخدمون المراجع العربية القديمة كما

يستخدمون المراجع الفرنسية الحديثة وهم يرجعون إلى الطبرى ، وابن عبد الحكم ، والمسعودى ، وابن خلدون ، والمقريزى ، والسيوطى ، كما يرجعون إلى ڤولتير ، وروسو ، ومونتسكيو ، وجيزو ، وكاترمير ؛ فمعظم المؤرخين المصريين فى القرن التاسع عشر قد أفادوا من المزج بين الثقافتين ، ومع هذا لم ينسوا وطنهم وتاريخه ، بل كانت دراستهم فى أوربا حافزاً لهم على العناية بتاريخ بلادهم وإعادة كتابته من جديد على ضوء ماوصلت إليه البحوث التاريخية والأثرية فى عهدهم ، فهم عندما بدأوا يؤلفون لم يؤلفوا فى تاريخ أوربا والعالم ، وإنما ألفوا فى تاريخ مصر ، فزعيم المدرسة الأولى رفاعة بدأ بوضع كتاب متعدد الأجزاء فى تاريخ مصر من أقدم العصور إلى وقته ولكنه لم ينجز منه إلا جزئين اثنين ، وعلى مبارك زعيم المدرسة الثانية بدأ بتأليف كتابه فى خطط مصر .

٣ — التيارات والمؤثرات التى أثرت فى كتابة التاريخ فى هذا القرن

ا — الحركات القومية :

ثم كانت الحركة الإصلاحية الوطنية فى أواخر عصر إسماعيل ، وتبعتها الثورة العرابية فى عهد توفيق ، وانتهت الثورة بالاحتلال البريطانى لمصر ، وكان الاحتلال مثيراً جديداً للحركة الوطنية التى

تزعمها أول الأمر مصطفى كامل ؛ وكان لهذه الحركة الوطنية بشعبتيها أثر واضح فى كتابة التاريخ فى أواخر القرن التاسع عشر ، فاتجه الكتاب إلى معالجة شؤون مصر والتأريخ لهذه الحركة الوطنية ولأنفسهم ولمصر الحديثة وللأسرة العلوية الحاكمة ، وكانوا وهم ينظرون لأنفسهم ولوطنهم وتاريخه ينظرون فى نفس الوقت إلى العالم الخارجى المحيط بهم والذى سبقهم فى مدارج الحضارة ، وبوجه خاص إلى أوربا التى تسيطر عليهم وعلى بلدان الشرق الأخرى ؛ ولهذا كانوا تارة يؤرخون لمصر وتارة يؤرخون للعالم ، فظهرت لهم فى أواخر القرن التاسع عشر كتب فى تاريخ مصر وأحداثها ، وكتب فى تاريخ العالم مثل « البحر الزاخر » لمحمود فهمى ، و « الكافى » لشاروبيم .

ب — العناية بالآثار :

وصحب هذا كله العناية بالآثار والتنقيب عنها ودراستها منذ فجر هذا القرن ، وكان لهذه الدراسة أثرها فى مؤلفات المصريين الذين كتبوا فى التاريخ فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

هذه هى التيارات أو المؤثرات العامة التى أثرت فى حركة التأليف التاريخى فى مصر فى القرن التاسع عشر ولونتها هذه الألوان .

وقد أثرت فى تنشيط حركة التأليف التاريخى ونموها وتطورها مؤثرات كثيرة أخرى ظهرت فى مصر فى القرن التاسع عشر ولم تكن تعرفها من قبل .

حـ — الاعتراف بالتاريخ كعلم وتدريسه فى المدارس :

من هذه المؤثرات اعتراف الدوائر الثقافية فى مصر ولأول مرة بالتاريخ كعلم ، ووضع دروس خاصة به فى المدارس ، وتعيين مدرسين لتدريسه وتأليف أو ترجمة الكتب لدراسته ، والفضل الأول فى هذا يرجع إلى رفاعة الطهطاوى ، وقد بدأ هذا فى مدرسة الألسن ، ثم درس التاريخ بعد ذلك فى المدارس التجهيزية ، ثم فى مدرسة اللسان المصرى القديم ، ومدرسة دار العلوم ، وأخيراً فى مدرسة المعلمين العليا ، وكانت أولى بعثات أرسلت إلى أوربا للتخصص فى دراسة التاريخ من خريجى مدرسة المعلمين العليا ، ثم تلتها بعثات أخرى من خريجى الجامعة المصرية بعد إنشائها كجامعة حكومية فى سنة ١٩٢٥ ، ومعظم هؤلاء المبعوثين شغلوا كراسى أساتذة التاريخ فى الجامعات المصرية بعد عودتهم ، وعلى أيديهم وأيدى تلاميذهم تطورت الدراسات التاريخية فى مصر تطوراً أساسياً فى المنهج والطريقة والأسلوب والموضوعات .

د — الطباعة :

وكان لظهور الطباعة وانتشار المطابع فى مصر فى هذا القرن أثر جد واضح فى الدراسات التاريخية ، فقد عرفت مصر الطباعة فى مفتتح القرن التاسع عشر ، وكانت المطبعة العربية التى صحبتها الحملة الفرنسية معها هى أول مطبعة وجدت فى مصر ، ثم خرجت المطبعة مع الحملة عند جلائها ، وبقيت مصر بلا مطبعة إلى أن أنشأ محمد على مطبعة بولاق فى حدود سنة ١٨٢٢ ، ثم أنشئت بعد ذلك مطابع أخرى كثيرة ملحقة بالوزارات والمدارس العليا ، وفى هذه المطابع طبعت الكتب التاريخية مترجمة ومؤلفة ، وكانت تطبع من كل كتاب فى العادة ألف نسخة وخاصة الكتب التى كانت توزع على تلاميذ المدارس ، فإذا عرفنا أن الكتب التاريخية — وغير التاريخية — كانت تتداول قبل القرن التاسع عشر بطريق النسخ ، أدركنا الفرق الواضح بين الأثر الذى يتركه كتاب يقرؤه ألف — أو أكثر من ألف عن طريق التداول — ، وكتاب يقرؤه عشرة أو عشرون على أكثر تقدير .

هـ — الصحافة :

يضاف إلى هذا أثر الصحافة ، فقد عرفت مصر الصحافة لأول مرة فى هذا القرن أيضا ، وكانت العناية فى صحافة القرن التاسع عشر

بالمقالة أكثر من الأخبار ، وكان ينشر فى الصحف والمجلات المصرية كثير من الفصول والكتب التاريخية — مترجمة ومؤلفة — فكتاب رفاعة « منتهى الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز » نشر أولا على حلقات فى مجلة روضة المدارس ، وكذلك كتاب « نبذة فى التنظيمات السياسية المختصة بالضبطية عند العرب والفرس والترك » الذى ترجم عن الفرنسية[1] ، نشر فصولا فى مجلة روضة المدارس .

وكتاب «حقائق الأخبار فى أوصاف البحار » لعلى مبارك ، الذى نشر أول الأمر فصولاً فى مجلة روضة المدارس ، ثم جمعت الفصول فى كتاب مستقل .

وكتاب « حماة الإسلام » لمصطفى نجيب ، نشر كذلك فصولاً فى جريدة اللواء ؛ وهناك أمثلة كثيرة أخرى لكتب وفصول تاريخية نشرت فى صحف « وادى النيل » و « اللواء » و « المؤيد » ، وفى مجلات « روضة المدارس » و « المقتطف » و « الهلال » . . الخ .

---

(١) عنوان هذا البحث بالفرنسية هو :

"Behrnauer = *Mémoire sur les Institutions de Police chez les Arabes, les Persans et les Turc.*"

وقد نشر أولا فى المجلة الآسيوية

(Journ. As. 5. e serie, 1866, T. X. X V, P. 461-509 ; T. XVI, p. 114-190).

و — إحياء التراث التاريخى القديم :

ونتيجة لانتشار المطابع فى مصر ـ حكومية وغير حكومية ـ بدأ المصريون يحسون حاجتهم للتعرف على تراثهم التاريخى القديم ، ويعملون على نشر هـذا التراث وطبع كتبه ليحصل أكبر عدد ممكن منهم على نسخ من هذه الكتب ، وكان رفاعة أيضاً هو صاحب الفضل الأول فى إحياء هذا التراث العربى القديم ونشره ، فقد سعى حتى حصل على موافقة سـعيد باشا وصدرت الأوامر — كما يقول على مبارك — « بطبع جملة كتب عربية على طرف الحكومة ، وعمّ الانتفاع بها فى الأزهر وغيره ، منها تفسير الفخر الرازى ، ومعاهد التنصيص ، وخزانة الأدب ، والمقامات الحريرية ، وغير ذلك من الكتب التى كانت عديمة الوجود فى ذلك الوقت »[1].

ثم حاول نفس المحاولة بعده الشيخ محمد عبده ، ولكنه لم يلجأ إلى معونة الحكومة ، وإنما أسس فى سنة ١٩٠٠ ، جمعية سماها « جمعية إحياء العلوم العربية »[2]، وقد قامت هذه الجمعية

---

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية

(٢) انظر : آدمز : الإسلام والتجديد فى مصر ، ص ٨٠ — ٨١ ؛ ورشيد رضا ، تاريخ الإمام ، ج ٣ ، ص ٢٤٧ ، ج ١ ، ص ٧٥٣ وما بعدها ؛ عثمان أمين : رائد الفكر المصرى محمد عبده ، ص ٣٨

بطبع عدد كبير من المخطوطات العربية القديمة فى اللغة والفقه والأدب والتاريخ .

ثم أقبل نفر آخر من المصريين المشتغلين بالطباعة أو الصحافة أو الفكر بوجه عام على طبع كتب أخرى ، فطبعت فى مصر فى هذا القرن كتب كثير من المؤرخين القدامى مثل ابن الأثير وابن خلدون ، وأبو شامة ، وابن الجوزى ، وابن حجر ، وابن بطوطة ، وابن إياس ، وابن مماتى ، والبلاذرى ، والمقريزى ، والسخاوى ، والسيوطى ، وابن دقاق ، والجبرتى ، وغيرهم . .

وبدأ المصريون يقرأون هذه الكتب ويتعرفون على تاريخهم الذى نسوه ، وعرفوا أن لهم أمجاداً تاريخية كثيرة فى ميادين الحرب والثقافة والحضارة ، ونشأ لديهم نتيجة لهذا كله وعى تاريخى جديد كان ذا أثر فعال فى تقوية الروح القومية .

ز — الجمعيات العلمية والتاريخية :

ومن العوامل القوية التى أثرت فى نشر الوعى التاريخى والدراسات التاريخية فى القرن التاسع عشر ، ظهور الجمعيات العلمية ، وهذه أيضاً ظاهرة جديدة لم تعرفها مصر قبل هذا القرن ،

وقد كانت جهود هذه الجمعيات وأبحاثها ومطبوعاتها تعنى فى معظمها بتاريخ مصر فى مختلف العصور .

أول هذه الجمعيات أو المجامع المجمع العلمى الذى أنشأه نابليون عند مجيئه إلى مصر فى سنة ١٧٥٨ ، وكان أعضاؤه من العلماء الفرنسيين الذين صحبوا الحملة ، وقد جمعت ثمرات بحوثهم فى الكتاب الضخم القيم « تخطيط مصر Description de Egypte" ، وقد ألغى هذا المجمع عند جلاء الحملة عن مصر ، ولكنه أعيد ثانية فى الإسكندرية سنة ١٥٨٩ فى عهد محمد سعيد ، باسم l'Institut d'Egypte ثم لم يلبث أن نقل إلى القاهرة ، وكان أعضاؤه فى هذه المرة نخبة من علماء المصريين ومن العلماء الأوربيين المقيمين فى مصر ، وأنشأ المجمع له مجلة علمية ، كما كان ينشر مجلدات تذكارية سنوية Memoires ، وفى المجلة والمجلدات التذكارية نشرت عشرات الأبحاث والمقالات فى التاريخ بوجه عام ، وتاريخ مصر بوجه خاص ، والمجمع لا زال موجوداً حتى الآن ، ومجلته تنشر بانتظام .

وفى عهد محمد على كون جماعة من المستشرقين والعلماء الأوربيين المقيمين فى مصر جمعية أسموها « الجمعية المصرية[1] » "Société Egyptienne"

(١) انظر : Yacoub Artin Pacha : *Lettres du Dr. Perron, du Caire et Alexandrie, á m. Jules Mohl, à Paris. 1838-1854.* = *Le Caire, 1911.*

وقد تحدث عنها كثيراً الدكتور برون Dr. Perron فى خطاباته إلى صديقه جول مول J. Mohl ، فذكر أنها أسست سنة ١٨٣٥ ، وكان غرضها الأول إنشاء مكتبة تضم أكثر عدد ممكن من الكتب ، وخاصة مايتحدث منها عن الشرق : تاريخه وجغرافيته وأدبه وعاداته .. الخ .. الخ

وقد تطورت أغراض الجمعية بعد نحو ست أو سبع سنوات من تأسيسها ، فأصبح من أغراضها طبع ونشر الكتب المتصلة بالشرق .

وقد انضم إلى عضوية الجمعية فيما بعد عدد من المصريين الذين تثقفوا ثقافة أوربية ، غير أن الجمعية انتهى أمرها إلى الانحلال فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وفى سنة ١٨٧٤ ضمت مكتبتها إلى دار الكتب الخديوية (المصرية فيما بعد) تنفيذاً لأمر أعضائها الأخيرين : حكاكيان بك ، وكانى بك ، ومسيو توربورن M. Thurborn

وفى سنة ١٨٦٨ أنشأ رجال الفكر من المصريين جمعية مصرية خالصة سموها « جمعية المعارف »[1] وهدفها نشر الثقافة بوساطة التأليف والطباعة والنشر ، وقد قامت هذه الجمعية بطبع

= و (جمال الدين الشيال : دكتور برون والشيخان محمد عياد الطنطاوى ومحمد عمر التونسى ؛ مجلة كلية الآداب بجامعة اسكندرية ، العدد الثانى ، ١٩٤٤ ، ص ١٧٩ — ٢٢١

(١) الرافعى : عصر إسماعيل ، ج ١ ، ص ٢٤٢ — ٤٤٢

عدد كبير من المؤلفات العربية القديمة فى التاريخ والفقه والأدب ، ومن الكتب التاريخية التى طبعتها : كتاب أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ، والفتح الوهبى فى شرح العتبى ، والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا ، وتاريخ ابن الوردى . . الخ .

وفى عصر إسماعيل أيضاً أنشئت الجمعية الجغرافية الخديوية فى سنة ١٨٧٥ ، وأغراضها العناية بالأبحاث الجغرافية والعلمية وتدوينها ونشرها ، ولهذه الجمعية مجلة قيمة جداً نشر فيها كثير من المقالات عن الكشوف الجغرافية والأبحاث الأثرية والتاريخية التى تمت فى القرن التاسع عشر .

وفى مجلات هذه الجمعيات ومطبوعاتها كانت تنشر أبحاث المشتغلين بالتاريخ من المصريين والأوربيين على السواء ، فإلى جانب أبحاث كازانوفا ، وهرتس ، ومرييت ، وبروكش وغيرهم كانت تنشر أبحاث أخرى لمحمود الفلكى ، ويعقوب أرتين ، ومحمد مختار ، وأحمد كمال ، وعلى بهجت .

٤ — صدى هذه المؤثرات فى كتابة التاريخ

فالمدارس الجديدة ، والاعتراف بالتاريخ كعلم ، وتدريسه فى هذه المدارس ، والطباعة ، والصحافة ، والجمعيات الثقافية والتاريخية ، وحركة إحياء التراث العربى القديم ، والعناية بالآثار ،

والنهضة القومية ، كل هذه العوامل كان لها أثرها الواضح فى ظهور الوعى التاريخى فى مصر فى القرن التاسع عشر ، فنشطت حركة التأليف التاريخى ، وألفت الكتب الكثيرة وتعددت ألوان البحث التاريخى ، فلم تعد الكتابة فى التاريخ مقصورة على مصر والإسلام كما كانت من قبل ، بل لقد طرق المؤرخون المصريون موضوعات لم تكن معروفة فى المكتبة التاريخية فى العصر الإسلامى ، وسنحاول أن نحدد فيما يلى الموضوعات التى تناولوها .

١ — تاريخ العالم :

من الموضوعات التى طرقها مؤرخو مصر فى هذا القرن لأول مرة تاريخ العالم ، وكانت الكتابة فى هذا الموضوع تطوراً طبيعياً منذ تحطمت أسوار العزلة التى كانت تحيط بمصر فى العصر العثمانى ومنذ بدأت مصر تتصل بالعالم الخارجى ، فنحن لا نسمع أن مصريا واحداً زار أوربا فى القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، ولكننا نسمع أن عشرات المصريين أرسلوا فى أوائل القرن التاسع عشر لتلقى العلوم الحديثة فى دول أوربا المختلفة : إيطاليا وفرنسا وألمانيا وانجلترا ، ونسمع أن كثيرين من المصريين زاروا أوربا فى النصف الثانى من هذا القرن للسياحة والدراسة وزيارة المتاحف والمكتبات وحضور المؤتمرات والدعاية لقضية بلادهم ، ولقد درس هؤلاء المصريون

تاريخ العالم فى مدارس أوربا وجامعاتها ، وشاهدوا حركة التأليف التاريخى النشيطة فى أوربا فى القرن التاسع عشر ، وقرأوا لمؤرخى أوربا فى هذا القرن ، فكان من الطبيعى أن يعنوا بهذا الفرع من فروع التاريخ ، لهذا نجد رفاعة الطهطاوى يبدأ مع نفر من تلاميذه فى مدرسة الألسن بترجمة عدد من الكتب الفرنسية لتغطية تاريخ العالم بعصوره المختلفة ، وكان أحد هذه الكتب وهو تاريخ شارل الخامس من تأليف مؤرخ من مؤرخى أوربا فى القرن الثامن عشر وهو روبرتسن ، وفى أواخر القرن التاسع عشر نجد مؤرخين آخرين يؤلفان فى تاريخ العالم ، أحدهما قائد من قواد الثورة العرابية ، وهو محمود فهمى ، وقد وضع كتابه « البحر الزاخر » أثناء إقامته فى منفاه فى جزيرة سيلان ، وهو كتاب ضخم فى أربعة أجزاء ، أرخ فيه لكل بلاد العالم ، والثانى مؤرخ مصرى قبطى هو ميخائيل شاروبيم[1]،

---

(١) ميخائيل شاروبيم (١٨٦١ – ١٩٢٠) ولد بالقاهرة بحارة السقايين ، وتلقى العلوم بمدرستها ، فتعلم اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية ، وفى الرابعة عشرة من عمره عين فى قلم التحريرات الإفرنجية بوزارة المالية ، وتنقل فى وظائف كثيرة إلى أن عين فى سنة ١٨٨٤ قاضيا بمحكمة المنصورة الأهلية ، ثم رئيسا لنيابة تلك المحكمة ، وفى سنة ١٨٩٩ عين فى وزارة المالية ناظراً فى إدارة أملاك الميرى الحرة ، وفى سنة ١٩٠٣ أحيل إلى المعاش فتفرغ لإتمام تاريخه الكبير الكافى ، المطبوع منه ٤ أجزاء ، =

وقد وضع كتاباً مماثلا أسماه « الكافى فى التاريخ » أرخ فيه للعالم كذلك ، وكان اعتماد الرجلين عند تأليف كتابيهما على المراجع الأوربية .

وهذا لون جديد من ألوان التاريخ ، لقد كتب المؤرخون المصريون والمسلمون من قبل فى تاريخ العالم ، ولكن العالم فى نظرهم كان هو العالم الإسلامى ، فهم لم يحاولوا أن يكتبوا فى تواريخهم العالمية عن الشعوب التى كانت تسكن خارج عالمهم الإسلامى . فيما عدا شذرات قليلة عن الشعوب المتاخمة للعالم الإسلامى كالهنود أو الترك أو البيزنطيين .

أما شعوب أوربا بالذات فقد كان رأى المؤرخين المسلمين فيهم

= ويبقى الجزء الخامس مسودة ، ولم ينشره أولاده ، وكان شاروبيم من سراة الأقباط وأعيانهم ورئيسا لجمعية التوفيق القبطية .

وقد اعتبرناه من مؤرخى القرن التاسع عشر لأنه ألف كتابه فى هذا القرن ، وطبعت أجزاؤه الأربعة فى السنوات الأخيرة منه (٨٩٨ — ١٩٠٠) والجزء الأول يتضمن تاريخ مصر فى العصور القديمة وينتهى بفتح العرب لمصر . والجزء الثانى فيه تاريخ لمصر فى العصر الإسلامى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى ، والجزء الثالث يؤرخ للدولة العثمانية ولمصر فى عهدها ، وينتهى عند تولية محمد على حكم مصر .

وفى الجزء الرابع يؤرخ لمصر منذ عصر محمد على إلى آخر عهد توفيق ؛ هذا وقد نشر شاروبيم مخطوطة قديمة عنوانها « التليد فى مذهب أهل التوحيد » لمؤلفه حمزة بن على وزير الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، وطبع الكتاب فى القاهرة سنة ١٩١٣ .

رأياً سيئاً وكانت عنايتهم بهم ضئيلة ، فقد كانوا يعتقدون أنهم يعيشون فى عالم من الجهل والتأخر فى مكان قصى عنهم لايخشى خطره على الإسلام ذات الحضارة المزدهرة ، المشرقة ، وليس عندهم من المعارف مايقدمونه لهم[1] ؛ ينعكس هذا الرأى واضحاً فى أقوال مؤرخى العرب وجغرافييهم فى العصور الوسطى ، يقول المسعودى — أحد جغرافي القرن الرابع (العاشر الميلادى) — : « وأما أهل الربع الشمالى وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم .. فغلب على نواحيهم البرد والرطوبة ، وتواترت الثلوج عندهم والجليد ، فقل مزاج الحرارة فيهم ، فعظمت أجسامهم ، وجفت طبائعهم وتوعرت أخلاقهم ، وتبلدت أفهامهم ، وثقلت ألسنتهم .. ولم يكن فى مذاهبهم متانة .. ومن كان منهم أوغل فى الشمال فالغالب عليه الغباوة والجفاء والبهائمية » .

ويعدّد قاض من طليطلة (وهو ابن صاعد الأندلسى) فى القرن الخامس (١١ م) فى كتابه «طبقات الأمم» الأمم التى عنيت بالعلم وهى : «أمم الهند والفرس والكلدانيون والعبرانيون واليونانيون والروم وأهل مصر والعرب» ، ويضيف إلى ذلك أن «أنسب الأمم الأخرى (التى لم تعن بالعلوم) هى الصين والترك» ، أما الأمم الباقية

---

(1) Bernard Lewis : *The Arabs in History. p.p. 164-165.*
والترجمة العربية لهذا الكتاب بعنوان « العرب فى التاريخ » قام بها نبيه أمين فارس ، ومحمود يوسف زايد ، بيروت ١٩٥٤ ، ص ٢٣٥ – ٢٣٦ .

فكانوا موضع ازدرائه ، ويصفهم بأنهم : « أشبه بالبهائم منهم بالناس .. وأن من كان منهم موغلا فى بلاد الشمال عظمت أبدانهم وابيضت ألوانهم ، وانسدلت شعورهم ، فعدموا بها دقة الأفهام وثقوب الخواطر ، وغلب عليهم الجهل والبلادة ، وفشا فيهم العمى والغباوة .. »

وقد تكون هذه الأقوال صحيحة إلى حد ما عند ما كانت أوربا تعيش فى العصور الوسطى الأولى ، ولكن مع بدء القرن السادس عشر تغير الموقف تغيراً تاماً ، فبدأت مصر وبلاد الشرق الأدنى الإسلامية تعيش فى عزلة غريبة ، وفى ظلمة أشبه بظلمة العطور الوسطى الأوربية ، فى حين أن دول غرب أوربا بدأت تقفز بعد عصر النهضة إلى الأمام وتخطو فى طريق التقدم العلمى والحربى والاقتصادى خطوات واسعات ، ولهذا اتجهت أنظار المصريين مع نهضتهم الجديدة فى القرن التاسع عشر إلى أوربا ودولها المختلفة يقتبسون من علومها وينقلون عن لغاتها ، ولهذا اتجه المؤرخون المصريون فى هذا القرن كذلك إلى الكتابة عن تاريخ العالم بما فيه هذه الأجزاء التى لم يكونوا يعرفون شيئاً ألبتة عن تاريخها ، ولهذا كان ما كتبه المؤرخون المصريون فى كتبهم المترجمة والمؤلفة فى القرن التاسع عشر عن دول أوربا وتاريخها هو أول ما كتب عنها فى اللغة العربية .

ب — تواريخ الدول المجاورة ذات الصلة بمصر :

وإلى جانب هذه التواريخ العالمية ، عنى عدد من المؤرخين المصريين فى هذا القرن بوضع كتب مستقلة عن تاريخ بعض الدول المجاورة ذات الصلة بمصر ، فألف إسماعيل سرهنك كتابه « حقائق الأخبار عن دول البحار » للتأريخ للدول البحرية ومن بينها مصر ؛ وألف محمد فريد « تاريخ الدولة العلية » ، كما ألف مصطفى كامل كتابين أحدهما فى « تاريخ المسألة الشرقية » والثانى عن اليابان ، وألف جورجى زيدان كتاباً فى « تاريخ انجلترا » .

وظهر فى مصر فى هذا القرن أربعة كتب عن السودان ، اثنان منها بقلم محمد عمر التونسى ، وهما رحلة دارفور ورحلة وداى ، والثالث بقلم نعوم شقير ، والرابع بقلم إبراهيم فوزى .

كذلك حظى تاريخ العرب والإسلام بنصيب كبير من عناية المؤرخين المصريين ، فألف رفاعة كتابه فى سيرة الرسول ، ووضع جورجى زيدان كتاب « العرب قبل الإسلام » وكتاب « تاريخ التمدن الإسلامى » وكتاب «تاريخ آداب اللغة العربية» .

وبعض هذه الموضوعات كما نرى يطرقها المؤرخون المصريون لأول مرة ، ويزودون المكتبة العربية بأول كتب كتبت فى

تاريخ هذه الدول ، فلم يكن فى المكتبة العربية قبل هذا كتب فى تاريخ الدولة العثمانية أو المسألة الشرقية أو اليابان أو انجلترا أو الدولة العثمانية أو السودان .

حـ — المذكرات الشخصية :

ولون آخر من ألوان التأليف التاريخى التى كتب فيها المؤرخون المصريون لأول مرة فى القرن التاسع عشر وهو كتابه المذكرات الشخصية .

وكان ظهور هذا الفن نتيجة لمعرفة المصريين للسياسة بمعناها الحديث ،واشتراكهم فى أحداثها ، واضطلاعهم بمسئوليات الحكم أو قيادة الرأى العام لأول مرة ، ولهذا كان كتاب المذكرات جميعاً من هذا النوع من الرجال ، أى من رجال الحكم أو من قادة الفكر والرأى العام ، من أمثال عرابى ومحمد عبده ، وعبد الله النديم ، ومحمود فهمى .

ء — تاريخ مصر العام :

وإلى جانب هذه الأنواع الجديدة من التأليف التاريخى كتب المصريون فى أنواع أخرى كانت معروفة قبلهم وألفت فيها الكتب الكثيرة ، فكتب بعضهم فى تاريخ مصر العام من أقدم العصور أو من الفتح الإسلامى إلى وقتهم ، ومن هذا النوع كتاب رفاعة

الذى أراد أن يؤرخ فيه لمصر فى كل العصور ، ولم ينجز منه إلا جزئين ، بدأ الأول بالتأريخ لمصر فى عهد الفراعنة وانتهى به إلى الفتح العربى لمصر ، وخصص الثانى للسيرة النبوية ، ثم توفى قبل أن ينجز بقية الأجزاء ، ومن الممكن أن ندخل تاريخ الجبرتى فى هـذا النوع فقد قدم لـكتابه بمقدمة مختصرة فى تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامى ثم فصل الـكلام بعد ذلك عن تاريخها فى القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر ، ومن هذا النوع أيضاً الـكتاب الذى أرخ فيه جورجى زيدان لمصر منذ الفتح الإسلامى إلى أواخر القرن التاسع عشر ، وسماه « تاريخ مصر الحديث من الفتح الإسلامى إلى الآن » ، وهو فى جزئين .

٥ — كتب الخطط وتواريخ المدن :

وتاريخ الخطط والمدن فن قديم من فنون التاريخ ابتدعه المؤرخون المصريون وكتبوا فيه كثيراً فـكان أول من كتب فيه أبو عمر الـكندى وآخرهم تقى الدين المقريزى ، ولم يكن يخلو قرن من القرون من مؤرخ من مؤرخى الخطط ، فيما عدا قرون الحـكم العثمانى الثلاثة ، وقد جدد هذا الفن التاريخى فى القرن التاسع عشر وبدأ بالـكتابة فيه على مبارك فأخرج كتابه القيم « الخطط التوفيقية الجديدة » فى عشرين جزءاً ، أرخ فيه للقاهرة ومدن

مصر جميعاً واعتمد فيه على خطط المقريزى ، ثم وصل بتاريخ هذه المدن إلى عصره ، أى إلى أواخر القرن التاسع عشر ، وأفاد كثيراً من البحوث والكشوف الأثرية التى تمت فى هذا القرن ، وعنى غيره من معاصريه المشتغلين بالآثار كذلك بالتأريخ لبعض المدن المصرية القديمة أو الحديثة ، المندثرة أو الموجودة ، فأرخ أحمد كمال لمدينة منفيس ولمدينة عين شمس ، وأرخ على بهجت لمدينة الفسطاط فى كتابه « حفريات الفسطاط » ، وكتب محمد مسعود تاريخاً صغيراً لمدينة الإسكندرية أسماه « المنحة الدهرية فى تخطيط مدينة الإسكندرية » .

و — تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر والأسرة العلوية :

كذلك عنى المصريون بالتأريخ لمصر فى القرن التاسع عشر ، وللأسرة الحاكمة وهى أسرة محمد على ، فكتبوا الكتب الكثيرة فى هذا الموضوع ، وتبدأ هذه السلسلة بكتابى الجبرتى « عجائب الآثار » و « مظهر التقديس » ، ثم يكتب بعده الشيخ خليل الرجبى أحد علماء الأزهر « تاريخ محمد على » الذى لا يزال مخطوطاً ، ثم يكتب سليم النقاش كتاب « مصر للمصريين » فى تسعة أجزاء ، يؤرخ فى الثلاثة الأولى منها للأسرة العلوية من محمد على إلى إسماعيل ، وقد ضاعت هذه الأجزاء ، ويؤرخ فى الأجزاء الستة الأخيرة لعهد توفيق وللثورة العرابية ، ثم كتب

بعد ذلك محمد فريد « البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية » ، والجزء الثانى من « تاريخ مصر الجديد » لجورجى زيدان ، يؤرخ لمصر فى العصر الحديث .

ز — كتب التراجم العامة :

ومن فنون التاريخ التى عالجها المصريون فى القرن التاسع عشر فن التراجم بجميع أنواعه ، فقد ألفوا كتباً فى التراجم العامة ، ترجموا فيها لمجموعة من الرجال القدامى أو المعاصرين ، ومن أمثلة هذا النوع كتاب « أشهر مشاهير الإسلام » لرفيق العظم ، وكتاب « حماة الإسلام » لمصطفى نجيب ، وهذان يضمان تراجم لأبطال الإسلام القدامى ؛ وكتاب « تراجم مشاهير الشرق » لجورجى زيدان ، وكتاب « نوابغ الأقباط ومشاهيرهم فى القرن التاسع عشر » لتوفيق إسكاروس ، وكتاب « تراجم أعيان القرن الثالث عشر الهجرى » لأحمد تيمور (وهذان الأخيران من مؤلفى القرن العشرين) .

ح — السير :

وهناك مجموعة أخرى من الكتب يضم كل منها ترجمة واحدة أو سيرة لرجل واجد ، وهذه جميعاً تؤرخ لبعض البارزين من

المصريين فى القرن التاسع عشر ، ومن أمثلتها سيرة رفاعة المسماة « حلية الزمن بمناقب خادم الوطن » التى كتبها تلميذه صالح مجدى ، و « ترجمة حياة محمود باشا الفلكى » التى كتبها محمد مختار باشا وإسماعيل الفلكى باشا ، و « ترجمة حياة إسماعيل باشا الفلكى » لأحمد زكى باشا ، و « ترجمة تاريخ كلوت بك مؤسس المدارس الطبية » لمحمد لبيب ، و « ترجمة أبو السعود أفندى ، لولده محمد بك أنسى » .

ط — السير الشخصية :

ويضاف إلى هذه بعض السير الشخصية ، أى التى أرخ فيها أصحابها لأنفسهم ، وخير أمثلة لهذه سيرة على مبارك التى أرخ فيها لحياته وضمنها كتابه الخطط التوفيقية عند كلامه عن مدينة برنبال ، والسيرة التى كتبها محمد عمر التونسى لنفسه فى كتابه « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » ، والسيرة التى كتبها عبدالله النديم لنفسه فى كتابه « كان ويكون » .

ى — القصة التاريخية :

وهناك أخيراً فن من فنون الكتابة التاريخية عرفته مصر لأول مرة فى أواخر القرن التاسع عشر ، وهو فن « القصة التاريخية » وصاحب الفضل الأول فى اقتحام هذا الميدان هو

« جورجى زيدان » الذى كتب ١٨ قصة حاول فيها أن يروى قصة الإسلام والمسلمين منذ عصر الرسول إلى القرن التاسع عشر ، حقيقة لقد سبق محمد المويلحى غيره فى محاولة كتابة القصة الأدبية حين كتب « عيسى بن هشام » ، ولكن جورجى زيدان كان أول من كتب القصة التاريخية ، وقد نما هذا الفن فى القرن العشرين وبرز فيه عدد من المصريين الذين كتبوا القصة التاريخية من أمثال محمد فريد أبو حديد ، ونجيب محفوظ ، وعلى أحمد باكثير ، ومحمد سعيد العريان .

ك — التأليف فى التاريخ بلغات أوربية :

ظاهرة أخيرة تمتاز بها حركة التأليف التاريخى فى مصر فى القرن التاسع عشر ، وهى إقبال عدد من المشتغلين بالتاريخ فى مصر على كتابة مؤلفاتهم ومقالاتهم بلغات أوربية ، وباللغة الفرنسية بوجه خاص ، وهذه ظاهرة لا نجد لها مثيلا عند المؤرخين فى مصر الإسلامية قبل القرن التاسع عشر ، لقد كان بعض هؤلاء المؤرخين ورجال الفكر من المصريين يعرف بعض اللغات الأجنبية بل ويتقنها وخاصة اللغتين الفارسية والتركية ، فمن بين المؤرخين كان ابن دقاق والعينى وابن تغرى بردى وابن إياس يعرفون اللغة التركية ، ومن بين رجال الفكر كان الشيخ حسن الجبرتى يتقن اللغتين الفارسية والتركية ، وكان المرتضى الزبيدى يتقن الفارسية

والتركية والكرجية ، ولكننا لا نعرف أن واحداً من هؤلاء أو غيرهم ألف بغير اللغة العربية ، وذلك لأن اللغة العربية كانت هى لغة العلم فى الشرق الإسلامى فى العصور الوسطى .

وإذا كان بعض المشتغلين بالتاريخ فى مصر فى القرن التاسع عشر قد كتبوا باللغة الفرنسية فذلك لأن هذه اللغة كانت قد أصبحت لغة العلم ولغة السياسة فى العالم المتحضر ، وهؤلاء الذين كتبوا بها من المصريين كانوا من خريجى البعثات الذين درسوا فى فرنسا ، أو ممن درسوا اللغة الفرنسية فى مدرسة الألسن .

وفى مقدمتهم يعقوب أرتين وهو أرمنى الأصل ، أرسل فى بعثة إلى أوربا فى عصر محمد على لدراسة الإدارة الملكية ، وقد تثقف يعقوب ثقافة أوربية ، وولى وظائف كثيرة ، فكان مؤدباً لبعض أنجال الخديو إسماعيل فى سنة ١٨٧٣ ، وكاتماً أوربياً للأسرار فى المعية فى سنة ١٨٧٩ ، ووكيلاً لديوان المدارس منذ سنة ١٨٨٤[1]، وكان من المشتغلين بالعلم المعنيين بالتاريخ بوجه خاص ، وله كتب وأبحاث كثيرة كتبها باللغة الفرنسية ، فمن كتبه :

---

(١) أحمد عزت عبدالكريم : تاريخ التعليم فى مصر – عصر إسماعيل – ، ص ١٠ ، ٨٩ ، ١٢٠ ، ١٨٤ ، ٢١١ ، ٦١٣ ، ٨٧٤ .

— *L'Instruction Publique en Egypte, Paris 1890.*

وقد ترجمه على بهجت إلى اللغة العربية بعنوان : « التعليم العام فى مصر » وطبع فى بولاق سنة ١٨٩٤ .

وكتاب :

— *La Propritété Foncière en Egypte, Le Caire 1883.*

وقد ترجمه إلى العربية سعيد عمون بعنوان : « الأحكام المرعية فى شأن الأراضى المصرية » ، وطبع فى بولاق سنة ١٣٠٧ هـ .

وكتاب :

— *Considerations sur L'Instruction Publique en Egypte. Le Caire 1894.*

وله عدا هـذه الكتب عدد كبير من المقالات التاريخية نشرها فى مجلة المعهد المصرى

(١)"Bulletin de L'Institut Egyptien"

وممن كتب باللغة الفرنسية أيضاً محمود الفلكى ، ومن كتبه :

1— *Memoires sur Le Calendrier Arabe avant L'Islamisme, sur La Naissance et L'age du Prophet Mohammed. Journal Asiatique 1858.*

---

(١) انظر على سبيل المثال :

Artin (Yacoub) :

= *Description de Six Lampes de mosquées en Verre Emaillé, dans (Le Bulletin de L'Inst. Egypt. anuée 1886).*

= *Trois Differentes Armoires de Kaït Bey. dans (Le Bulletin de L'Inst. Egypt. 1888).*

وقد نشر هـذا البحث أولا فى المجلة الأسيوية ثم طبع على حدة ، وترجم إلى العربية تحت عنوان : « نتائج الأفهام فى تقويم العرب قبل الإسلام وتحقق مولد النبى وعمره عليه الصلاة والسلام » ، ترجمه أحمد زكى أفندى (مترجم محافظة الإسماعيلية) وطبع فى بولاق سنة ١٣٠٥ هـ .

2— *Memoire sur L'antique Alexandrie. Copenhague 1872.*

ولمحمود الفلكى مقالات كثيرة أخرى نشرت بالفرنسية فى المجلات العلمية فى مصر وفى أوربا مثل : مجلة المعهد المصرى ، ومجلة الجمعية الجغرافية ، والمجلة الأسيوية ، ونشرات الأكاديمية الملكية البلجيكية . . الخ . . الخ .

ومن المقالات التى نشرها فى النشرات البلجيكية سنة ١٨٨٥ ، مقال عنوانه :

"*L'Age et Le But des Pyramides Lus dans Sirius*"

« عمر الأهرام والغرض من بنائها » .

ومن هؤلاء قدرى باشا ، وله كتاب :

Cadri Pacha

= Notices Géographigues, Le Caire 1869.

ومنهم على بهجت ، وله بالفرنسية كتاب :

= Les Fouilles d'El Fustat"

وقد ترجمه إلى اللغة العربية بالاشتراك مع محمود عكوش بعنوان : —

« حفريات الفسطاط » .

وله عدا هذا الكتاب مقالات تاريخية وأثرية كثيرة نشرها فى مجلة المعهد المصرى[١].

ومنهم محمد مختار باشا ، وقد ولى إدارة هرر وقتاً ما عندما كانت خاضعة لحكم مصر ، ومقالاته وأبحاثه عن هرر تعتبر حتى اليوم من أهم المراجع لدراسة هذه البلاد ، وقد نشر هذه الأبحاث والمقالات فى مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية ، ومن أهمها :

Mohamed Mouktar

= *Notes sur Les Pays de Harar (Bulletin de La Sociêtê Khédiviale de Geohraphie du Caire 1876).*

ومنهم أحمد كمال باشا وله عدا كتبه العربية مقالات فرنسية كثيرة نشرها فى مجلة المعهد المصرى .

---

(١) انظر على سبيل المثال :

Aly Bahgat.

= *Les Forêts en Egypte et Leur Administration au moyen-âge (Bulletin de L'Inst. Egypt. 1900).*

= *Acte de Mariage du General Abdalla menou avec La Dame Zobeidah, (Bulletin. Inst. Egypt. 1898).*

= *La Famille Nusulmane du General Abdalla Menou. (B. Inst. Egypt. 1900).*

= *Un Etude Archéologique (Mémoires Institut Egyptien. tome VIII).*

= *Un Décret. du Sultan Khoshqsdam, (B. Inst. Eg. 5 th Series, V, 30-5).*

ومنهم أحمد شفيق باشا ، وقد كتب بالفرنسية كتاب :
L'Esclavage dans L'Islam
وقد ترجمه إلى العربية أحمد زكى باشا بعنوان : « الرق فى الإسلام ، بولاق ١٣٠٩ » ، وأضاف إليه تعليقات تاريخية هامة .

وهكذا لم يعد البحث التاريخى على الأسس العلمية الحديثة مقصوراً على الأوربيين والمستشرقين ، بل بدأ المصريون يدلون بدلائهم فى هذا الميدان ، وأخذوا يؤلفون باللغة الفرنسية ، ويكتبون بها مقالات وأبحاثاً جديدة قيِّمة تنشر فى المجلات التاريخية العلمية فى مصر والخارج ، وعلى صفحات هذه المجلات تبدأ تظهر أسماء محمود الفلكى ، وإسماعيل الفلكى ، ومحمد مختار ، ويعقوب أرتين ، وأحمد كمال ، وعلى بهجت إلى جانب أسماء كازانوفا ، وهرتس ، ومرييت ، وبروكش وغيرهم .

٥ — المنهج والطريقة والأسلوب

عند مؤرخى مصر فى القرن التاسع عشر

واختلفت كتابات المؤرخين المصريين فى القرن التاسع عشر عن كتابات سابقيهم من مؤرخى العصر الإسلامى الوسيط اختلافاً واضحاً فى المنهج والطريقة والأسلوب ، فقد كان مؤرخو العصر الوسيط يعتمدون على النقل ، والنقل الحرفى فى معظم الأحيان

وخاصة عندما يؤرخون للعصور السابقة ، والجديد فى كتبهم هو الأجزاء التى يؤرخون فيها لعصرهم ، وقليل منهم من كان ينقد أو يحلل أو يقارن أو يجرؤ على إبداء رأيه .

ومعظم هؤلاء المؤرخين كانوا يتبعون طريقة الحوليات ، فيؤرخون لمصر أو للعالم الإسلامى سنة سنة ، فكان القارئ لكتبهم يجد المعلومات التى بين يديه مجزأة منفصلة تنقصها وحدة الموضوع ، وقليل منهم كذلك من حاول التأريخ للموضوعات أو للدول كما فعل ابن خلدون فى تاريخه .

أما المؤرخون المصريون فى القرن التاسع عشر فقد تأثروا بالمنهج العلمى الحديث الذى لاحظوه فيما قرأوا أو درسوا أو ترجموا من كتب التاريخ الأوربية ، لهذا نجدهم يهملون طريقة الحوليات ، ويقسمون كتبهم التاريخية إلى موضوعات أو عصور أو دول ، فيؤرخون لكل عصر أو لكل دولة فى فصل مستقل ، يظهر هذا واضحاً فى كتاب رفاعة « أنوار توفيق الجليل » وفى كتب شاروبيم ، ومحمود فهمى ، وسرهنك ، وجورجى زيدان . . . الخ .

كذلك بدأ مؤرخو هذا العصر يحاولون فيما يكتبون أن ينقدوا وأن يحللوا وأن يقارنوا وأن يصدروا الأحكام ، وبعدوا بذلك بعداً كبيراً عن طريقة النقل الحرفى التى كان يلتزمها سابقوهم .

ومن النواحي الهامة التي تأثر بها المؤرخون المصريون في هذا القرن في منهجهم وطريقتهم العلمية استعمالهم للعلوم المساعدة لتفسير التاريخ وفهمه ، مثل الوثائق والنميات والآثار والنقوش والكشوف الجغرافية . . الخ . . الخ .

وهذه أمور قلّ أن استعملها من سبقهم من المؤرخين ، حقيقة لقد أفاد بعض مؤرخي مصر الإسلامية من النقوش والوثائق مثل المقريزي في كتابه الخطط ، أو القلقشندي في صبح الأعشى ، ولكن مؤرخي مصر في هذا القرن خطوا خطوات جديدة في هذا الميدان ، فنجد الجبرتي يضمن كتابه « عجائب الآثار » كثيراً من الوثائق الصادرة عن حكام من الفرنسيين أو المماليك أو الأتراك ، كما يصرح في مقدمة كتابه أنه رجع إلى كثير من النقوش المرقومة على شواهد القبور ، وإلى سجلات الكتبة والمباشرين ، وكذلك فعل علي مبارك في كتابه الخطط ، ونجد سليم النقاش يضمن كتابه « مصر للمصريين » مجموعة ضخمة من الوثائق المتصلة بالثورة العرابية ، وينقل فيه صورة كاملة لمحاكمات العرابيين ، ونجد مؤلفاً آخر مثل فيليب جلاد[1] يجمع مجموعة

(١) فيليب جلاد (١٨٥٧ – ١٩١٤) سوري الأصل ، ولد ببيافا ، تلقى علومه في مدرسة الآباء اليسوعيين ، ونبغ في اللغة الفرنسية ، ثم رحل إلى مصر واستوطنها وتولى كثيرا من الوظائف الحكومية إلى أن عين محاميا بقلم قضايا الحكومة المصرية بالإسكندرية ، وكتابه يقع في ٦ أجزاء ، وطبع في مطبعة لاغوداكي بالإسكندرية طبعة أولى سنة ١٨٩٢ ، وطبعة ثانية سنة ١٩٠٠ – سنة ١٩٠١ .

كبيرة من القوانين واللوائح والفرمانات والمعاهدات الرسمية الصادرة عن الحكومة منذ سنة ١٨٤٠ إلى أواخر القرن التاسع عشر ويصدرها فى كتاب أسماه « قاموس الإدارة والقضاء » .

وكان أول من عنى بالوثائق (باعتبارها مرجعاً من أهم المراجع لدراسة التاريخ) من مؤرخى مصر فى القرن العشرين أمين سامى باشا فى كتابيه « تاريخ التعليم فى مصر » و « تقويم النيل » .

أما النميات فقد أفرد لها على مبارك جزءاً خاصاً من أجزاء كتابه « الخطط التوفيقية » ، وأما الآثار والكشوف الجغرافية فقد أفاد منها كثيرون من مؤرخى مصر ، وخاصة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، والأمثلة كثيرة تجدها واضحة فى كتب رفاعة وعلى مبارك وأحمد كمال وعلى بهجت .. وغيرهم .

أما الأسلوب فقد تغير تغيراً تدريجياً ، فمؤرخو هذا القرن التزموا فى أوله أسلوب سابقيهم فكانوا يختارون لكتبهم عناوين مسجوعة ، وكانوا يلتزمون السجع أحياناً فى كتابتهم ، ويكتبون بأسلوب سهل مرسل أحياناً أخرى ، وخير مثال لهذا التذبذب رفاعة ، فهو فى الجزء الأول من تاريخه المسمى « أنوار توفيق الجليل » يلتزم السجع إلى حد كبير ، ولكنه فى الجزء الثانى الذى أرخ فيه للرسول ترك السجع وانطلق يكتب بأسلوب سهل مرسل ، ولم يكد يشرف القرن التاسع عشر

على نهايته حتى وجدنا المؤرخين المصريين — والكتاب بوجه عام — يتركون هذه المحسنات البديعية ، ويكتبون بأسلوب سهل جميل خال تماماً مما كان يعيب أساليب العصر العثمانى المتأخر من ركاكة أو عجمة ، والفرق واضح جلى بين أسلوب الجبرتى أو رفاعة ، وأسلوب عبد الله النديم أو محمد عبده .

والموضوعات التى تناولها مؤرخو القرن التاسع عشر تختلف عن الموضوعات التى كان يتناولها المؤرخون السابقون اختلافاً كبيراً ، فمعظم مؤرخى مصر الإسلامية عنوا بالتاريخ السياسى عناية كبرى ، وقل أن نجد من بينهم من أرخ للنواحى الثقافية أو الحضارية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو نظم الحكم ، أما مؤرخو القرن التاسع عشر فقد ألفوا فى التاريخ السياسى ، وألفوا فى تاريخ العالم ، كما ألفوا فى نظم الأراضى ونظم التعليم ، وفى نظم الحكم فى عهد الرسول ، وفى الرق فى الإسلام ، وفى تاريخ التمدن الإسلامى ، وفى مشاكل المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر ، وفى الثورة العرابية . . الخ . . الخ .

٦ — حركة التأليف التاريخى فى القرن التاسع عشر وأثرها فى المجتمع المصرى

بدأت العناية بالتاريخ فى القرن التاسع عشر بالكتب التاريخية التى ترجمت إلى اللغة التركية بأمر محمد على وابنه

إبراهيم ، وكان أثر هذه الكتب محدوداً ، فلم يفد منها — كما سبق أن ذكرنا — غير الوالى وابنه وبعض كبار رجال الدولة ممن يعرفون اللغة التركية .

ثم ترجم فى مدارس محمد على عدد ضخم من الكتب ، كانت فى معظمها كتباً حربية أو علمية أو طبية ، وهذه كانت محدودة الأثر أيضاً ، فلم يفد منها إلا تلاميذ هذه المدارس ، أما الكتب المتصلة بالعلوم الإنسانية من تاريخ وجغرافيا وفلسفة ومنطق التى ترجمها رفاعة وتلاميذه فى مدرسة الألسن فقد كانت أقوى أثراً فى المجتمع المصرى وفى القراء المثقفين من خريجى المدارس الحديثة ومن رجال الأزهر على السواء ، ولقد حاول الشيخ محمد عبده أن يقلل من أثر هذه الكتب التى ترجمت فى عصر محمد على فقال إن أثرها لم يتعد جدران المدارس وأن معظم هذه الكتب كان يودع بعد طبعه فى المخازن ، إلى أن يبع بعد ذلك للوراقين ، قال فى مقال له بعنوان « آثار محمد على فى مصر » نشر فى « مجلة المنار »[1] سنة ١٩٠٢ بمناسبة الاحتفال بذكرى مرور مائة سنة على تولى محمد على حكم مصر : « وجد كثير من الكتب المترجمة فى فنون شتى من التاريخ والفلسفة والأدب ،

---

(١) مجلة المنار ، المجلد الخامس ، الجزء الخامس ، ١٩٠٢ ، وطبع هذا المقال ثانية فى الجزء الثانى من « تاريخ الأستاذ الإمام » لرشيد رضا .

ولكن هذه الكتب أودعت فى المخازن من يوم طبعت ، وأغلقت عليها الأبواب إلى أواخر عهد إسماعيل باشا ، فأرادت الحكومه تفريغ المخازن منها ، وتخفيف ثقله عنها ، فنثرتها بين الناس ، فتناول منها من تناول ، وهذا يدلنا على أنها ترجمت برغبة الرؤساء من الأوربيين الذين أرادوا نشر آدابهم فى البلاد ، ولكنهم لم ينجحوا لأن حكومة محمد على لم توجد فى البلاد قراء ولا منتفعين بتلك الكتب والفنون . . الخ » .

ولكنا نرى أن محمد عبده كان مغالياً فى حكمه هذا ، وأن هذا الحكم إن صدق على الكتب الحربية والعلمية فإنه لا يصدق على الكتب التى ترجمت فى الألسن ، فقد ظل المثقفون من المصريين يقبلون على قراءتها طوال القرن التاسع عشر وشطراً من القرن العشرين ، والشواهد على هذا كثيرة ، فقد كانت ترجمة رفاعة لجغرافية ملطبرون Malte Brun ضمن الكتب التى طلبها عبد الله النديم ليقرأها فى مخبئه ، وكتب الشيخ مصطفى عبد الرازق — وهو تلميذ محمد عبده — فى أول القرن العشرين مقالا ينقد فيه ترجمة الدكتور طه حسين والأستاذ محمد رمضان لكتاب الواجب لجول سيمون ، وأشار فى هذا المقال إلى أنه قرأ الكتب التى ترجمها رفاعة وأفاد منها ، قال عند كلامه عن طريقة الترجمة الحرفية : « وأذكر أننى فى ما وقع إلى من معربات الأستاذ رفاعة بك رافع وجدت دقة فى تطبيق هذه القاعدة

تدل على ما كان فى طريقة الأستاذ من نفحات العلم الحديث »[١] .

أما الكتب المؤلفة فقد كان أثرها فى المجتمع المصرى قوياً واضحاً ، وأوضح ما يكون هذا الأثر فى ناحيتين :

— خلق الحاسة التاريخية ودفع المصريين للعناية بالتاريخ كعلم بوجه عام ، وبتاريخ مصر فى عصورها المختلفة بوجه خاص .

— تغذية الروح القومية .

وقد ساعد على تحقيق هذين الأثرين عوامل كثيرة شرحناها بالتفصيل فى الفصول السابقة ، وأهمها فى رأينا الفهم الجديد لتاريخ مصر القديم ، وللحضارة المصرية باعتبارها وحدة متصلة كانت تشع من أضوائها على شعوب العالم جميعاً ، والاعتداد بأمجاد هذا التاريخ وهذه الحضارة ، ثم العناية بالآثار والتنقيب عنها وحفظها وصيانتها باعتبارها نماذج لهذه الحضارة المصرية فى عصورها المختلفة .

وقد بدأ هذا الفهم — كما أسلفنا القول — رفاعة الطهطاوى ، ثم ردد أقواله ومفاهيمه غالبية المؤرخين والكتاب الذين أتوا بعده .

---

(١) مقال نشر فى الجريدة ، الأربعاء ٢٩ يوليو ١٩١٤ ، ونشر ثانية فى كتاب (من آثار مصطفى عبد الرازق ، نشر على عبد الرازق ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١٤٦) .

وكان لكتب التراجم التى ألفت فى القرن التاسع عشر أثرها القوى كذلك ، فمؤلفوها لم يترجموا لطبقات معينة من الناس كالأطباء أو النحاة أو الفقهاء ، ولم يترجموا لرجال قرن برمته كما كان يفعل مؤلفو كتب التراجم فى العصر الإسلامى ، وإنما كان كل واحد منهم يتخير مجموعة بعينها من الأبطال والعظماء فيترجم لهم مبيناً نواحى البطولة فى حياته وأعماله ، هكذا فعل رفيق العظم فى « أشهر مشاهير الإسلام » ، ومصطفى نجيب فى « حماة الإسلام » ، وجورجى زيدان فى « تراجم مشاهير الشرق » ، فكل شخصية ترجم لها فى هذه الكتب كانت توحى دون شك — إلى الشبان المصريين بمعانى البطولة ، وتضع أمام أعينهم نماذج من العظماء الذين آمنوا بالمثل العليا والفداء والتضحية .

وكتب التراجم الفردية لاتقل أهمية عن كتب التراجم العامة ، فتراجم رفاعة ، وعلى مبارك ، وأبو السعود ، ومحمود الفلكى وغيرهم كلها تؤرخ لمصريين عصاميين نشأوا فى قلب الريف المصرى ، واستطاعوا عن طريق العلم وبجدهم واجتهادهم أن يصلوا إلى أعلى المناصب فى الدولة ، وأن يؤدوا لوطنهم خدمات كثيرة جليلة .

والتأريخ لحركة البعث القومى وللمقاومة الشعبية للاحتلال الأجنبى التى تبدو واضحة فى ما كتبه الجبرتى فى كتابيه التاريخيين ، والتأريخ للثورة العرابية وبواعثها وأهدافها فى كتاب « مصر للمصريين » ، وفى كتابات ومذكرات قادة الثورة ، كل هذا كان

له أثره الواضح القوى فى إشعال الحركات الوطنية وتقوية الروح القومية بين المصريين فى القرن العشرين ، ولا يستطيع أحد أن ينكر تأثر حركة مصطفى كامل وحركة سعد زغلول بل وحركة جمال عبد الناصر بهذه العوامل جميعاً .

وساعدت حركة إحياء التراث القديم وطبع الكثير من الكتب التاريخية على تعريف المصريين بأمجادهم التاريخية فى العصر الإسلامى ، فبدأوا يحسون بأنفسهم ويعملون على بعث هذا الماضى المجيد .

ولكنا نأخذ على حركة التأليف التاريخى فى القرن التاسع عشر أنها لم تقم على أكتاف مؤرخين محترفين أعدوا أنفسهم إعداداً كاملا لدراسة التاريخ وتدريسه والتأليف فيه ، فنحن إذا استثنينا الجبرتى الذى ركز جهوده للتأليف فى التاريخ ، أو رفاعة الذى أعد نفسه إعداداً ما للكتابة فى التاريخ ، نجد أن بقية المؤرخين المصريين فى القرن التاسع عشر كانوا من الهواة ، فهم أصلا ذوى ثقافات متعددة مختلفة فى القانون أو الهندسة أو الأدب أو الحرب أو العلوم الدينية ، ثم شغفوا حباً بالتاريخ فكتبوا فيه ، هذا الوضع سيتغير فى القرن العشرين ، فترسل أول الأمر فى العشر الثانية بعثات من خريجى مدرسة المعلمين ، إلى جامعات أوربا للتخصص فى دراسة التاريخ .

ثم تفتح الجامعة المصرية الحكومية فى سنة ١٩٢٥ ، وينشأ بها قسم خاص لدراسة التاريخ بجميع فروعه ويقوم بالتدريس فيه أول الأمر عدد من أساتذة التاريخ الأوربيين وعدد من مبعوثى المعلمين العليا بعد عودتهم ، ثم ترسل بعثات أخرى من خريجى هذه الجامعة ومن خريجى الجامعات المصرية الأخرى بعد إنشائها ، وتنشأ بأقسام التاريخ فى هذه الجامعات أقسام للدراسات العليا ، وخريجو هذه الأقسام وأعضاء هذه البعثات هم الذين يشغلون الآن كراسى التاريخ فى الجامعات ، ولجهودهم وجهود تلاميذهم فى التأليف والترجمة والنشر طابع جديد خاص ، أيسر ما نقوله عنه إنه طابع علمى رصين .

جمال الدين الشيال